العالم العامل، الفقيه
آية اللّه الشيخ عباس القمي قدس سره
1294هـ ـ 1359هـ

أحد أبرز العلماء العاملين: حصون الإسلام، المرابطين على ثغر القلوب لتلقى الله تعالى سليمة من الشرك والشك، واللهو واللغو، وحب غير الله تعالى وأوليائه.

شكّل سلوكه قبل مؤلفاته جسر تواصل المؤمنين مع رسول الله وأهل البيت صلى الله عليه وعليهم، فجاءت مؤلفاته الخالدة رسائل عمليّة في مجالاتها.

ولِّ وجهك شطر كتب الشيخ عباس القمي عندما تبحث عن الشذرات الولائية والفرائد المحمدية، ستجد أنك على الخبير سقطت. وعند جهينة الخبر اليقين.

عكف عشرين عاماً على تأليف كتابه الفريد «سفينة البحار»، وغاص في بحارالقرآن الكريم والحديث الشريف، وعلومهما، وعندما أراد أن يقدم للأجيال خلاصة الرحلة جمع كتابه النوعي «مفاتيح الجنان»، ثم زار حرم أمير المؤمنين عليه السلام وقدّم له النسخة الخطية قبل أن يقدمها للطباعة.

وها هو «مفاتيح الجنان» في كلّ بيت أو يكاد، الأمر الذي يشير إلى أنّ نَفْسَ المصطفى قد تقبله بقبول حسن.

ما يلي شذرات من سيرة العالم بالله، الشيخ عباس القمي رزقنا الله تعالى من بركاته.

حوالي سنة 1294 هـ في مدينة قم المقدسة.

دراسته وأساتذته:

أمضى طفولته وشبابه في مدينة قم المقدسة، ودرس فيها مرحلة المقدمات وكذلك الفقه والأصول.

درس بعض العلوم الأخرى عند آية الله الميرزا محمد الأرباب من تلاميذ الميرزا الشيرازي الكبير رحمه الله.

ـ في سنة 1316 هـ، هاجر إلى النجف الأشرف لإكمال دراسته، وأخذ يحضر دروس آية الله العظمى السيد محمد كاظم اليزدي (صاحب كتاب «العروة الوثقى»، الرسالة العملية التي علق عليها ويعلق الفقهاء الذين يتصدون للفتوى).

المحدّث القمي

ـ كانت له رغبة شديدة بدراسة علوم الحديث، ولإشباع هذه الرغبة لازم العلاّمة المحدّث الشيخ حسين النوري، لينهل من علومه في هذا المجال، وقد تبع لاحقاً أستاذه بمنهجه الأصولي المهتم بالأخبار والحديث والروايات، ولشدّة تعلّقه واهتمامه بالحديث صار اطلاق لقب (المُحدّث) منصرفاً إليه.

ـ في سنة 1318 هـ، تشرّف بحج بيت الله الحرام، وبعد انتهاء موسم الحج عاد إلى قم المقدسة، وبقي فيها مدة قصيرة ثم عاد إلى النجف الاشرف وبقي ملازماً أستاذه المحدث النوري، وأخذ يساعده في استنساخ كتابه المعروف «مستدرك الوسائل».

ـ في عام 1322 هـ، وبعد مرور عامين على رحيل أستاذه المحدث النوري، عاد إلى مدينة قم المقدسة بسبب تدهور وضعه الصحي، وبعد عودته انشغل بالتأليف والترجمة والوعظ والإرشاد.

ـ في سنة 1331 هـ، شدّ الرحال إلى مدينة مشهد المقدسة، وبعد أن استقر فيها إلى جوار الروضة الرضوية المطهرة، واصل التدوين والتأليف والإرشاد، وتدريس علم الأخلاق، وأقام هناك مدة اثنتي عشرة سنة.

ـ في سنة 1341هـ، شرع في مدينة مشهد المقدسة بإلقاء دروسه في علم الأخلاق في مدرسة الميرزا جعفر للعلوم الدينية، استجابةً للطلبات التي وجهها إليه طلاب الحوزة العلمية هناك، وشيئاً فشيئاً ازداد عدد الطلاب الذين يحضرون درسه حتى بلغ تعدادهم ألف طالب.

ـ طلب منه علماء مدينة قم المقدسة العودة إليها، لحاجة آية الله العظمى الشيخ عبد الكريم الحائري إلى أمثاله لتشييد أركان الحوزة العلمية الفتيّة في قم والتدريس بها، فاستجاب لطلبهم وعاد إلى قم المقدّسة.

إجازاته:

حاز على إجازة بالرّواية من بعض المشايخ، وأجاز جماعة من العلماء الذين عاشوا في الخمسين سنة الأخيرة، منهم: الإمام الخميني، وآية الله العظمى السيد المرعشي وآية الله العظمى السيد الميلاني قدّس الله سرهم. وبعد المجزرة التي أحدثها رضا خان في مسجد (كوهر شاد) في مشهد المقدسة، وما ترتّب عليها من إبعاد آية الله العظمى السيد حسين القمي قدّس سره إلى العراق، صمّم المحدّث القمي على الهجرة إلى النجف الأشرف، وبقي فيها إلى آخر عمره الشريف.

صفاته وأخلاقه:

1ـ اهتمامه بالتأليف: كان من أخصّ خصوصياته اهتمامه بالتدوين والتأليف والترجمة، وقد نقل عنه كثيرون هذا الاهتمام. يقول ابنه الأكبر: «عندما كنت طفلاً، كنت أرى والدي مشغولاً بالكتابة من الصباح إلى المساء دون انقطاع، وحتى عندما كنا نسافر إلى خارج المدينة».

2ـ اهتمامه بالآخرين: كان الشيخ القمي مراعياً لأصدقائه ورفاقه بشكل منقطع النظير، فعندما كان يرافقهم في السفر فإنه كان يهتم بهم اهتماماً كبيراً، ويعاملهم باللطف وحسن المعاشرة وكرم الأخلاق.

3ـ زهده: كان زاهداً في دنياه، مبتعداً عن مظاهر الترف، غير متعلق بالمظاهر الدنيوية الزائفة، وقد نُقلت قصص كثيرة عن زهده نذكر واحدة منها كنموذج: في إحدى المرات جاءته امرأتان من مدينة بومباي الهندية، وأبلغتاه عن رغبتهما بتقديم مبلغ شهري قدره خمس وسبعون روبية، فامتنع الشيخ القمي عن قبول المبلغ، فاعترض عليه أحد أبنائه قائلاً: «يا والدي، لست أنت الذي تذهب للإستدانة من هذا وذاك، بل ترسلني أنا لأستدين، وأنت لا تعلم ما أواجهه من ذلّ الدَّين». فردّ عليه بحزم قائلاً: «أسكت، إن الأموال التي صرفتها في السابق ولحدّ الآن، لا أعرف كيف أجيب عنها غداً عند الله عزّ وجلّ، وعند صاحب العصر والزمان ﷺ، ولذلك امتنعت عن قبول هذا المبلغ لئلا أُعرّض نفسي لثقل المسؤولية».

4ـ تواضعه: كان يتواضع للجميع وعلى الأخصّ للعلماء منهم، يحدّثهم بأخبار أهل البيت عليهم السلام، ويتعامل معهم بأخلاق الأئمة المعصومين عليهم السلام، وكان من عادته عدم الجلوس في صدر المجلس، فهو يجلس حيث ينتهي به المجلس، ولا يُفضّل نفسه على الآخرين.

5ـ نفوذ كلامه: كان لكلامه وخطاباته رحمه الله تأثيراً في نفوس سامعيه، لأنه عندما يدعو الناس إلى الالتزام بإحدى العبادات أو خُلق من الأخلاق، كان يُلزم نفسه أولاً ثم يدعو الناس إليه، فهو يضع على الدوام نصب عينيه الآية الشريفة: ﴿..كبُر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون..﴾ الصف:3.

6ـ عبادته: كان الشيخ عباس القمي متقيداً بالعبادات المستحبة، مثل النوافل اليومية وتلاوة القرآن الكريم وقراءة الأدعية والأذكار عن الأئمة عليهم السلام، وكذلك إحياء الليل بالعبادة وإقامة صلاة الليل، وفي خصوص ذلك قال ابنه الأكبر: «لا أتذكر أنه في ليلة ما تأخر في النهوض للعبادة، حتى في السفر». ومن مميزاته احترامه لكل من ينتسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، عاملاً بقوله صلى الله عليه وآله: «أكرموا أولادي....».

آثاره العلميّة:

له آثار علمية كثيرة بلغت أكثر من ستين أثراً، وهي كما يلي مرتّبة وفق حروف الهجاء:

1 – الأنوار البهية: في تواريخ الحجج الإلهية، مرتّباً على أربعة عشر نوراً بعدد المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام.

2 – الباقيات الصالحات: في الأدعية والأوراد والأذكار، طبع بهامش مفاتيح الجنان الآتي ذكره.

3 – بيت الأحزان: في مصائب سيدة النسوان البتول فاطمة الزهراء عليها السلام.

4 – تتمة المنتهى: في وقائع أيام الخلفاء. [أنظر رقم 39].

5 – تتمة تحية الزائر: ملحق بكتاب تحية الزائر للمحدث النوري.

6 – تحفة الأحباب: في نوادر آثار الأصحاب.

7 – التحفة الطوسية: في تاريخ طوس مع الزيارات والأدعية الواردة الخاصة بالروضة الرضوية في خراسان.

8 – ترجمة فارسية لكتاب جمال الأسبوع في الأدعية والأذكار من تأليف السيد علي بن طاووس، وقد ترجم عناوينه وأحاديثه دون أدعيته.

9 – ترجمة فارسية لكتاب مصباح المتهجد في الأدعية والأوراد لشيخ الطائفة الطوسي.

10 – حكمة بالغة: ومائة كلمة جامعة في الأخلاق، فيه مائة كلمة من نوادر حكم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مع بيان بعض الأبيات الشعرية.

11 – الدرة اليتيمة: في تتمة الدرة الثمينة في شرح نصاب الصبيان للفاضل اليزدي.

12 – دستور العمل: يحتوي على أعمال السنة باختصار.

13 – ذخيرة الأبرار : اختصر فيه كتاب أنيس التجار في فروع التجارة للمولى النراقي الكاشاني، وأخرج منه ما يطابق فتاوى السيد اليزدي صاحب العروة.

14 – ذخيرة العقبى : في مثالب أعداء فاطمة الزهراء عليها السلام.

15 – رسالة في الصغائر والكبائر : في ذكر المعاصي الكبيرة والصغيرة الواردة في القرآن والأحاديث النبوية.

16 – سبيل الرشاد : بحث في عقائد المبدأ والمعاد.

17– سفينة البحار : ومدينة الحكم والآثار، وهو فهرس تفصيلي لكتاب بحار الأنوار للعلامة المجلسي ويقع في مجلدين كبيرين مرتّباً على حروف الهجاء سهل التناول كثير الفائدة. وقد استغرق تأليفه مدّة عشرين سنة بتمامها.

ومن أهمّ سِماته وأنفعها أنّ المؤلّف قد نظر ـ لدى حديثه عن المادّة الواحدة ـ إلى كلّ ما لَه صلة بها ممّا تضمّنه كتاب «البحار» .. فجعله مجموعاً مرتّباً تحت عنوان واحد بعد أن كان مبثوثاً متناثراً في طواياه. وتُلاحَظ هذه المسألة من خلال إحالاته على أجزاء كتاب العلاّمة المجلسيّ؛ ففي مادة «حرث» مثلاً أورد ما يتعلّق بالحارث الهمداني من سبعة مواضع متفرّقة في أجزاء البحار.

كما أنّ العنوان الذي يُورده المؤلّف تحت المادة هو الأشهر من بين سائر العناوين الممكنة، كأن يَذكُر اللقب لا الاسم إذا كان اللقبُ هو الأعرف. ولم يغفل المؤلّف، في هذه الحالة، أن يُحِيل على مادّة أخرى مناسبة للعنوان الآخر. ومن الأمثلة على هذا ما أورده في مادّة «حرث» أيضاً إذ قال: الحارث بن سعيد، أبو فراس الحمدانيّ.. يأتي في «فرس». وإنّما فعل ذلك لأنّ كنية أبي فراس أشهر من اسمه.

18 – شرح كتاب الوجيزة في الدراية للشيخ البهائي.

19 – صحائف النور : في وظائف الأيام والأسابيع والشهور.

20 – طبقات العلماء : يضم تراجم طائفة كبيرة من العلماء.

21 – الغاية القصوى : في ترجمة العروة الوثقى إلى الفارسية، والأصل للسيد محمد كاظم اليزدي، ترجم فصولا من أوله وجملة من كتاب الصلاة، ثم أتمه السيد أبو القاسم الإصفهاني.

22 – غاية المرام : مختصر دار السلام في الرؤيا والمنام لأستاذه المحدّث النوري.

23– غاية المنى : في ذكر المعروفين بالألقاب والكنى (فارسي)، وتوجد منه نسخة بخطه عند ولده بإيران، والكتاب يتناول تراجم علماء المسلمين السُنة.

24 – الفصل والوصل : في استدراك كتاب بداية الهداية في الواجبات والمحرمات للشيخ الحر العاملي.

25 – الفصول العلية : في المناقب المرتضوية.

26 – الفوائد الرجبية : فيما يتعلق بالشهور العربية من الأدعية والأذكار وهو أول مصنفاته.

27 – الفوائد الرضوية : تناول فيه تراجم علماء الجعفرية.

28 – فيض العلام : في وقائع الأيام بصورة مفصلة وفيه أيضاً الكثير من الأوراد والأدعية.

29 – فيض القدير : فيما يتعلق بحديث الغدير، استخرجه من كتاب عبقات الأنوار للمير حامد اللكهنوي، المجلد الخاص بحديث الغدير.

30 – كحل البصر : في سيرة سيد البشر النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

31 – الكلمات الظريفة : في المواعظ والأخلاق الشريفة.

32 – الكُنى والألقاب : يقول رضوان الله عليه في مقدّمه هذا الكتاب معرّفاً به: «.. هذا كتاب الكنى والألقاب، جمعت فيه المشهورين بالكنى والألقاب والأنساب من مشاهير علماء الفريقين،

وكثير من الشعراء والأدباء والأمراء المعروفين، واقتصرت في تراجمهم على المهم من أحوالهم، ".." وأضفت إليه ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور، ".." وموعظة بالغة، ".." وأحاديث شريفة، ".." وذكر البلاد ".." وكثيراً ما أذكر في خلال التراجم سيما في علماء الإمامية قدس الله تعالى أسرارهم عند ذكر مشايخهم أو تلاميذهم جماعة من المعروفين بأسمائهم بدون الكنى والالقاب..».

33 – اللآلي المنثورة : في العوذات والأحراز والأذكار المأثورة.

34 – مختصر الأبواب : يضم بعض السنن والآداب في الأدعية.

35 – مفاتيح الجنان : غنيٌّ عن البيان، وهو يُطبع حتى اليوم سنويّاً في إيران والعراق ولبنان وغيرها من البلدان الإسلاميّة، وقد تُرجم إلى اللغة الأورديّة أيضاً.

36 – مقاليد الفلاح : في أعمال اليوم والليلة.

37 – مقلاد النجاح : مختصر كتاب مقاليد الفلاح.

38 – منازل الآخرة : في بيان أحوال وأهوال الموت والآخرة وأسباب النجاة.

39 – منتهى الآمال : في ذكر تاريخ النبي والآل صلوات الله وسلامه عليهم.

40 – نزهة النواظر : بحث في الأخلاق، وهو ترجمة لكتاب معدن الجواهر لأبي الفتح الكراجكي.

41 – نفس المهموم : كتاب قيّم في مقتل السبط الشهيد عليه السلام.

42– نفثة المصدور : فيما يتجدّد به حزن العاشور، وهو تتمة نفس المهموم، وقد طُبع تحت عنوان نفس المهموم ونفثة المصدور.

43 – نفحة قدسية : ذكره الشيخ ضمن كتبه المطبوعة في إيران.
44 – هدية الأحباب : في المعروفين في الكنى والألقاب.
45 – هدايه الأنام : إلى وقائع الأيام.
46 – هدية الزائرين : في تعيين مراقد الأئمة عليهم السلام وزيارات قبورهم.
هذه الكتب المطبوعة، وذكر رحمه الله لنفسه تصانيف أخرى، هذه عناوينها :
1 – الآيات البينات : في أخبار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن الملاحم والغائبات.
2 – تتميم بداية الهداية للشيخ الأجل الحر العاملي.
3 – تعريب زاد المعاد : للعلامة المجلسي.
4 – الدر النظيم : في لغات القرآن العظيم وشرح الكلمات اللغوية الواردة فيه.
5 – شرح الصحيفة السجادية : للإمام زين العابدين عليه السلام.
6 – صحائف النور: في عمل الأيام والسنين والشهور.
7 – ضيافة الإخوان: في الأخلاق والمواعظ والإرشاد.
8 – علم اليقين: اختصر فيه كتاب حق اليقين للعلامة المجلسي.
9 – الفوائد الطوسية : يحتوي على بحوث مختلفة.
10 – قرة الباصرة : في تاريخ الحجج الطاهرة.
11 – مختصر الشمائل: اختصر فيه كتاب الشمائل للحافظ الترمذي.
12 – مختصر المجلد الحادي عشر: من كتاب البحار للعلامة المجلسي.
13 – الكشكول : في مختلف المواضيع والبحوث والأغراض.
14 – مسلّى المصاب : بفقد الأعزة والأحباب.
15 – نقد الوسائل: مختصر كتاب وسائل الشيعة للشيخ الحر العاملي.
وذكروا له كتباً أخرى، منها: المقامات العلية، وهو مختصر معراج السعادة للمحقق الشيخ أحمد النراقي، وكتاب سبيل الرشاد في أصول الدين، وشرح الكلمات القصار لأمير المؤمنين عليه السلام، وشرح أربعين حديثاً.

أقوال العلماء فيه :

1– الإمام الخميني: يتّضح موقف الإمام الخميني قدّس سرّه من المحدّث القمي من خلال علاقته بكتاب مفاتيح الجنان، الذي ورد ذكره أكثر من مرّة في كلمات الإمام وفي خُطبه.
يقول الإمام الخميني: « إن هذه الأدعية وخطب نهج البلاغة ومفاتيح الجنان، وسائر كتب الأدعية جمعيها تُعين الإنسان ليصبح إنساناً ».
ويقول نجله السيد أحمد رحمه الله، إنّ الإمام كان يقرأ جميع الأدعية الواردة في المفاتيح دون زيادة أو نقصان، وأنّه كان شديد الأُنس به، إلى حدّ أنّ النسخة الخاصّة به تتعرّض للتلف كلّ بضعة أشهر فنضطر إلى اصلاحها أو استبدالها بأخرى.
ويُنقل أنّ الإمام الخميني أيّام إقامته في المنفى في تركيا، كتب إلى ابنه السيد أحمد ليُرسل له الصحيفة السجادية ومفاتيح الجنان.
1– الشيخ آقا بزرك الطهراني، صاحب الذريعة وكان زميل دراسة المترجم له عند المحدّث النوري: «كنا نسكن غرفة واحدة في بعض مدارس النجف، ونعيش سوية "..." فرأيته مثال الانسان الكامل ومصداق رجل العلم الفاضل. وكان يتحلّى بصفات تحبّبه إلى عارفيه، "..." وكان دائم الاشتغال، شديد الولع في الكتابة والتدوين والبحث والتنقيب لا يصرفه عن ذلك شئ ولا يحول بينه وبين رغبته فيه واتجاهه إليه حائل..».
3– آية الله المرعشي النجفي: «العلاّمة الناقد، صاحب المصنفات الكثيرة "..." الدليل العارف في علم الحديث، المرحوم المبرور الحاج الشيخ عباس القمّي، من كبار مشايخنا في علم الرواية، وقد وجدت كتابه مفاتيح الجنان من أجلّ الكتب في الأدعية والزيارات...».
4– السيد محسن الأمين العاملي: «عالم، فاضل، صالح، محدّث، واعظ، عابد، زاهد».
5– العلامة الأميني : «وهو من نوابغ الحديث والتأليف في القرن الحاضر، وأياديه المشكورة على الأُمة لا تخفى».
6– الشيخ محمّد حرز الدين في معارف الرجال: «كان آية الله الشيخ عباس القمّي عالماً عاملاً، وثقة عدلاً متتبعاً، وبحّاثة عصره، أميناً مهذّباً زاهداً عابداً، صاحب المؤلّفات المفيدة..».
7– الشيخ محمّد علي التبريزي الخياباني في ريحانة الأدب: «من أفاضل علماء عصرنا الحاضر، كان عالماً فاضلاً كاملاً محدّثاً متتبّعاً ماهراً».
8– خير الدين الزركلي صاحب الأعلام : «باحث إمامي، من العلماء بالتراجم والتاريخ..».

وفاته :

لبى نداء ربّه تعالى في23 ذي الحجة الحرام سنة 1359 هـ في النجف الأشرف بعد أن قضى خمسة وستين عاماً من عمره الشريف في البر والتقوى وخدمة الشريعة الغرّاء، وصلّى عليه آية الله العظمى السيد أبو الحسن الاصفهاني رضوان الله عليه، وبعد أن شُيّع تشييعاً مهيباً حضره علماء وفضلاء الحوزة وشرائح مختلفة من أهالي مدينة النجف الأشرف، تم دفنه إلى جوار أستاذه المحدث النوري في الصحن الشريف للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. (على يمين الداخل من باب القبلة إلى حرم أمير المؤمنين عليه السلام).